الجزء السادس

الرسائل 11-12

أختي الحبيبة سلمى،

لقد وضعت يدي على قلبي يا حبيبتي عندما استلمت رسالتك.. لا بد أنها عتـاب، ولكن ماذا أقول يا أختي، أتعتذرين بدل أن تعتبي؟.. ياسلمى!.. يا أعـز مخلـوق عندي في الوجود!

دخل الدكتور وسألني: "ماذا تقرئين؟" قلت: "كتاب في بيتي" قال: "لقد طلبت مـن أخي أن يفتش لي عن كتاب علم النفس الذي أخبرتك عنه" شكرته على ذلك فقال: "سأتلفن له حتى يحضره لي!" قلت لا أظن أن باقي الكتب التي أحضرتها لي باقية عندي" ابتسم وقال: "هل ستأكلينها علينا؟ قلت: "ممكن! أنا لاأعيرها الاّ الى الآنسة صفاء.. فهي الوحيدة التي تحب القراءة، فاذا لم تردها لي حاسبها! كـم أفاجئهـا فأراها تنقل شعرا من مجلة.. دفترها مليء بالأشعار".. وهذا الحديث نقلنـا الـى الشعر والشعراء.. قلت الشعراء محظوظون، يموتون ويبقى ذكرهم مئات السنين.. فكرت بالمتنبي وقلت: "وتركك في الدنيا دويا كأنما.." وسألته: "ما هـو الـشطر الثاني؟" فأجاب: "تداول سمع المرء أنمله العشر" سألته: ما رأيك بالمتنبي؟ قـال: "هذا البيت مثلا يعد من الأبيات الثقيلة.. وتر.. ك.. ك، أما من ناحية صفاته يعـد جبانا وليس شجاعا بالمرة كما يحلو له أن يصف نفسه.. طموح للإمتلاك، وتروى عنه قصة وهي أنه أتى بائعا للبطيخ فسأله عن سعره فقال له خمسة عشر قرشا.. فقال له المتنبي أعطني اياه بعشرة قروش فأبى البائع.. وعندما ابتعد المتنبي قليلا عن بائع البطيخ جاء رجل آخر وسأل بائع البطيخ عن السعر فأجابه بأنه بعـشرة قروش، فطلب منه أن يوصله الى بيته.. عند ذلك اغتاظ المتنبي من البائع وعاتبه على هذا التصرف فأجاب: الفرق بينكما أن هذا الرجل ثري ويملك عـشرة آلاف دينار، زبون دسم، وأنت لا تملك ما يملكه! فأصبح المتنبي بعد هذا وكل أمانيه أن يمتلك عشرة آلاف الدينار!.. ذهب عند سيف الدولة فمنحه المال.. وأخيرا ذهـب عند كافور.. وأظنك تعرفين المثل الذي يقول "جوع كلبك يتبعك" هذا ما نصحه به

أحد المقربين اليه فأجابه: أخاف أن يرمي له شخص آخر قطعة لحـم فيتركنـي ويتبعه.. وهكذا الشعراء، عندما بخل سيف الدولة عليه تركـه.. والحقيقـة كمـا يقولون أن المتنبي أحب أخت سيف الدولة وأراد أن يتزوج بهـا.. ولكـن سـيف الدولة أبى أن يزوجه منها.. فكيف يزوج أخته الى شاعر؟ ولهذا تركـه المتنبـي وذهب الى كافور وأخذ يمدحه بالقصائد ومنها أن المسك ينوح من أعطافه وأنـه كالعنبر، والعنبر كما تعلمين لونه أسود ورائحته زكية.. ولكـن عنـدما وجـد أن كافور لا يفهم شعره ولا يقدره بمنحه ولاية كما أراد.. كتب تلك القـصيدة التـي مطلعها.. "لا تشتر العبد الاّ والعصا معه.." ولا أدري البقيـة فقلـت "ان العبيـد لأنجاس مناكيد"..

ابتسم وأردف: "وفي الصحراء طلع عليه لصوص وجردوه مما معه.. ظنوا أنـه يملك مالا كثيرا.. وأراد المتنبي أن يهرب وكان معه إبنه والخادم فقال له الخادم: "أتهرب وأنت القائل: "الخيل والليل، وأكملت معه، والبيـداء تعرفنـي والـسيف والرمح والقرطاس والقلم" وحين سمع ذلك القول عاد وقاتل حتى قتل....

قال: ليس من المرجح أن يكتب الشاعر عن نفسه، وقديما كانوا يكتبـون الـشعر للإرتزاق من مدح الأمراء قلت: "ان المتنبي عنده مركّب نقص في أخلاقـه فأنـا لاأحب المديح ولا الهجو في الشعر العربي.. لأنني لا أحب نفاق العواطف.."

كان ينظر الى النافذة فاستأذن وانصرف حين شاهد طبيبا صديقا له يقف بـسيارته عند باب المبنى وينزل منها..

رجاء

* * *

ذهبت عند الصغيرات في الغرفة التالية، وأردت أن أحمسهن للحديث.. سألت كل واحدة أن تخبرني كيف تحب أن تكون ابنتها.. قالت أمل بعد تردد:

"بدي ياها تكون شريفة، محافظة على دينها، ولا تحاكي البابـا حـسن.. وتكـون شنكليشة.."يعني شيك" وتكون بيضة وحنطتها سودة "يعنـي حلّتهـا سـوداء" وأن تحبني وتحب أبوها وتطيعني.. وأخلاقها تكون عالية.. تعاشر البنات المناح مـش البنات الزفرين.. يعني تعاشر الكويسات لتتعلم منهن.. وبريد منها اذا كانت قاعدة

مع جماعة وعمال يحكوا سيرة مو منيحة أو مو لازمة تطلع برة.. أنا عما بحكي هيك يعني عم عبر عن نفسي، لأني مو كويسة هالأيام.. وكمان لازم تاخد واحـد حلو.. وتكون طويلة وبيضة.. بياضها متل الياسمين وعيونها سود وحواجبها سود ومقفلة.. منخارها صغير وجسمها حلو وشعرها أسود..

قلت لها: - أهذا كل شيء؟ يمكن تكون شريفة وحلوة بـس ماعنـدها ثقافـة ولا عقل..

- لا، مابدي ياها تكون هيك.. لازم تكون ذكية وفالحة وقلبها جريع ماتخاف من حدا.. وتكون تحب مدرستها وتصير معلمة مدرسة.. وسألت وردة هذا السؤال فقالت:
- أول شي تكون شريفة ودينة.. فضحكت أمل وغمزتني بعينهـا فلاحظـت وردة ذلك وغضبت:
- أحسن مابدي قول شي.. فصالحتها وقلت لها:
- بعدين بزعل منك.. قالت والحنق باد على وجهها:
- بدي ياها أخلاقها تكون متل الزفت.. فتظاهرت أنني زعلانة منها:
- خلص أنا راح روح لغرفتي وما حاكيك أبدا ياوردة.. رضـيت أن تجيـب على سؤالي فقالت:
- بدي ياها تكون فهيمة وذكية متلي.. مش تاخدها وتمشي متل الحماصـنة.. ويكون أعلها في راسها وتكون خياطة.. ويكون منخارها ظريف وعيونهـا شهل، وسنانها بيض صغار وشعرها أشقر، ويكون لونها طحينية لا بيضة ولا سمرة.. وتكون وسط لا سمينة ولا نحيفة.. وبعدين ماتكون تنتر بالزلم!
- بس هيك؟
- أيوة بس هيك..

أما الصغيرة حسنا، فقالت لي:

- بدي ياها تكون ناصحة وايديها صغار حلوين، وتمها قد الفستقة، وسـنانها دهب.. وضحكنا كلنا، ودخلت الممرضة أوديت فسألتها نفس السؤال فقالت:

- تكون قرعة وعيونها غارقين لجوة.. وخدودها منفوخين ومنخارهـا يـدق بالإبريق لما تشرب.. ودنيها بطول ودنين الحمار.. قصيرة متـل مدحلـة السطوح.. مدعبلة كلها سوا، وتكون أخلاقها شوية واطية، وكل يوم تعمـل راندیفو مع واحد تروح معه عالسينما.. وتعاشر اللي أوطى منها.. وتكون آخر عمرها مسلولة متل أمها..
- لا، يا أوديت.. قولي الحقيقة ما بدنا هزار متل ما بقولوا المصريين..
- إسا إحنا بدنا نفكّر كيف تكون بنتنا.. لازم نفكر بدنا نعيش ولاّ بدنا نموت.. إذا أجتني بنت بدي أخنقها!

سألت السؤال نفسه للدكتور حين أحضر لي كتاب علم النفس بعد يومين فقال:

- من جهة أخلاقها ولاّشو؟
- كل ماتحب أن تكون عليه..
- أولا.. أفضل أن لا تكون لي ابنة.. أما اذا حصل ذلك فأريـدها أن تكـون واقعية معقولة.. وسأعلمها الى الحد الذي تريده وتختاره هي.. لن أجبرهـا على أن تأخذ الليسانس مثلا.. وتكون محافظة.. كثير من الناس يخلطـون بين التجدد والمحافظة.. أريدها مجددة بدون تبذل في لباسها، ومحافظة في القيم الأخلاقية التي عرفها مجتمعنا.. هذا يكفي..
- لم تقل الكثير..
- ما الذي لم أتكلم عنه؟
- أن تكون صادقة وأمينة..
- لم أقل هذا لأنها طبعا ستكون كذلك..
- والأهم أن تكون عزيزة النفس ذات إباء، لاتقبل أبدا بما يحط من كرامتها، ولو بكلمة..
- طبعا هذه الصفات ستكون عندها بالوراثة..
- وأن تحب الإعتماد على نفسها، ذات ارادة وشخصية قوية..
- ظننت أن هذه أشياء ثانوية تتعلمها من سلوك الوالدين فلم أفكر بها ولم أتكلم عنها.. ألديك سؤال آخر؟

- ما هو الحادث أو الحوادث التي كان لها تأثير في مجرى حياتك؟ قال وقد بدت على وجهه امارات التفكير:
- الحقيقة أنه لم يمر في حياتي حادث كان له التأثير في تغيير مجرى حياتي.. فحياتي جرت كما أردتها ولا شيء غير مجراها.. من جهة دراستي.. طبعا لا بد أن يفكر الإنسان حتى وهو صغير فيما يرغب أن يكون عليه في المستقبل.. ولقد طرح علي هذا السؤال ثلاث مرات في حياتي المدرسية.. مرتين بالعربية ومرة بالفرنسية.. قلت في المرة الأولى أنني أريد أن أكون طبيبا، وفي المرة الثانية أن أكون صحفيا.. وكنت في تلك الفترة مقتنعا تماما بهذه الرغبة ونلت عليه علامة شبه تامة في البروفيه.. وفي فحص البكالوريا قلت بأنني أرغب أن أكون طيارا.. وأستغرب في نفسي هذه التوجهات الآن.. فما الارتباط بين الطبيب والصحافي والطيار.. وسأخبرك عن ذلك في نهاية الحديث.. والآن سأتمم حديثي عن السؤال الأول.. عندما حصلت على البكالوريا الثانية كانت بداية حرب 39 وأنا من طبعي دائما أفكر في المستقبل.. وكنا في تلك الأثناء في أزمة بيتية.. فوالدي بعد ثلاث سنوات سيحال على التقاعد، ففكرت أن أدرس الحقوق فآخذ الشهادة قبل أن يحال والدي على التقاعد بسنة واحدة.. ولكنني ان درست الطب، فسأبقى عالقا سبع سنوات قبل أن آخذ شهادة الطب، ويحال والدي على التقاعد قبل أن أتم دراستي بأربعة أعوام، وسيضطر أحد إخوتي أن يعمل ليساعد والدي وأخي الأصغر سيكون في الصف العاشر ويأخذ شهادته، ولكنه لايستطيع أن يكمل دراسته العليا.. فأكون بذلك ضحيت بإخوتي في سبيل دراستي.. فلم أرض بذلك ولكن والدي كان يريد لي أن أدرس الطب وكذلك والدتي.. قال لي: أدرس الحقوق ان شئت، ولكن اذا أردت رأيي فأنا أريدك أن تدرس الطب.. فدخلت فرع الطب نزولا على ارادة والدي ووالدتي.. والحقيقة أن أخلاقي تلائم الطبيب أكثر مما تلائم المحامي، فأنا لا أكذب ولا أتلاعب.. وأصدقاء والدي كلهم أطباء، لقد كان يعمل في وزارة الصحة، فكان يريد أن يصبح

إبنه طبيبا.. لقد أحيل والدي على التقاعد بعد ثلاثة أعوام، ولكنه توظف براتب أكثر من الراتب الأول.. وكان كما قال لي والدي "ان الله يفعل ما يشاء!" واشتغل بعدها أخوي، وصرنا في بحبوحة.. وأنا أصبحت طبيبا..

أذكر أن جماعة في اجتماع كانوا يفرقون صورا لعدة أشخاص كاملة لكل الجسم. وكانوا يسألون عن المهنة التي تتلاءم وتليق بكل منهم.. وكان جواب من رأى صورتي بالرغم أنهم لا يعرفوني بأنني أصلح أن أكون طبيبا.. هذا رأي الناس في.. وضحك ثم سألني: "وأنت كيف ترينني؟" قلت: صحيح انك تصلح أن تكون طبيبا!..

رجاء

* * *

حبيبتي رجاء،

وصلتني رسالتك وأنا منهمكة في تصحيح أوراق الإمتحان لنهاية السنة مع زميلاتي المعلمات.. ماذا أقول لك؟.. لقد نالت طالباتي أسوأ العلامات بين الشعب الأخرى بسبب طريقتي الجديدة في تعليمهن قواعد اللغة.. نسين التلقين الببغاوي الذي اعتددن عليه من قبل.. ولم يستكملن بعد طريقة التفكير المنظّم.. وأصبحت أوراق شعبتي مميزة، اذا وقعت ورقة منها بيدي رحمت صاحبتها، واذا وقعت بيد واحدة من زميلاتي ترحمت عليها.. وبدا لي أن الأمر غدا صراعا بين المدرسات لتفوز كل منهن بأكبر معدل للعلامات لشعبتها، دون النظر الى ما كسبته طالباتي من قدرة شخصية.. وكنت أشعر بالضيق والحرج وتوتر الأعصاب ونحن نكشف الأوراق لأرى المستوى المنخفض لطالباتي حتى الممتازات منهن، حتى لتكاد الدموع تنفجر من عيني.. ومع ذلك كنت واثقة أنهن كسبن شيئا ثمينا.. لقد حطمت لهن طوال العام جدار الجمود الفكري وترديد الببغاوات.. وأصبح بوسعهن أن يكتبن ويعبرن عن أنفسهن في مادة الإنشاء دون اقتراف أخطاء جسيمة.. فماذا يريد "القواعد" أكثر من هذا؟.. ان جميع الطلاب يدرسون القواعد سنوات ويصلون الى الجامعة وهم يعجزون عن القراءة الصحيحة والكتابة الصحيحة لكأنما هو شيء منفصل عن هذه الغاية.. ومع ذلك فما أعفاني هذا الشعور من أن يتصبب

العرق من جبيني، والمدير يتفحص النتائج مقطب الجبين.. لم ينبس ببنـت شـفة ولكنه لا شك كان يلوم نفسه لأنه أسلمني تدريس مادة لا أتقنها!

كم يعاني الجديد في نضاله مع القديم ياأختاه! ولكنني أثق بالطريقة التي اتبعتهـا، وسأبيضها وأسلمها للمعارف في دمشق لتكون نموذجا سهلا لتدريس قواعد اللغـة في المستقبل!..

سلمى

* * *